بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه أئمة الهدى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعد ...

فإن أمتنا أمة غنية بأعلامها المتميزين، وشخصياتها الفذة، التي كان لها أثرها في شتى جوانب الحياة، علمية وعملية، وروحية ومادية، ولا ريب أن التاريخ لهذه الشخصيات المؤثرة في مجال الدين والدنيا هو جزء مهم من التاريخ العام لهذه الأمة، فليس التاريخ هو تاريخ الدول والممالك فحسب، ولا تاريخ الملوك والأمراء رجال الملك والسياسة فقط، كما يتصور الكثيرون أو يصورون. بل تاريخ الأفراد والأفذاذ أيضًا، الذين ماتوا ولم تمت آثارهم، وقد قال علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه: «مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

وقال الشاعر:

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمهم   وعاش قومٌ وهم في الناس أموات!

ولقد عنيت أمتنا بتاريخ هؤلاء الأموات الأحياء عنايةً بالغةً، فعرفت كتب التراجم والطبقات لمختلف الأصناف والفئات، من: الفقهاء، والأصوليين، والحفاظ، والمحدثين، والقراء، والمفسرين، والنظار، والمتكلمين، والزهاد، والمتصوفين، والحكماء، والمتفلسفين، والنحويين، واللغويين، والشعراء،

والأدباء، والخلفاء، والأمراء، والكتاب، والوزراء، والفلكيين، والأطباء، والفيزيائيين، والرياضيين، والكيمائيين، والجغرافيين، وغيرهم من الفئات والأصناف.

بل كثيرًا ما تنوعت كل فئةٍ من هذه إلى طبقات، مثل: الفقهاء، فهناك لكل مذهب طبقات مثل: الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم. وهناك من يؤرخ لأهل قرن معين كالمئة السابعة أو الثامنة ... إلخ.

وهناك من كتب كتابًا في سيرة علم واحد، كمَن صنَّف في سيرة عمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز، أو الحسن البصري، أو أبي حنيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو ابن حنبل، أو ابن المبارك، أو البخاري.

وهناك مَن يجمع في كتابه أعلامًا من كل التخصصات، وكل الطبقات.

ويلاحظ الدارس لتراثنا العريض: أن كثرة الأعلام والأعيان البارزين في تاريخنا، ينبئ بخصوبة هذه الأمة، وأن أرحامها ولادة للنوابغ.

ومن نظر في القرن الخامس وحده وجد فيه عددًا هائلًا من الأعلام، كما نرى ذلك في كتاب مثل «أعلام النبلاء» للذهبي، فقد ترجم لأعلام القرن الخامس، فكانوا ثمانية وتسعين وثمانمائة (898) في الأجزاء: (17، 18، 19). وهم الذين أفردهم بالترجمة، وقد ذكر في أثناء ترجمة هؤلاء أعلامًا آخرين كثيرين، أشار إليهم إشارةً، ولم يفرض لهم ترجمة.

وعند ابن العماد الحنبلي في كتاب «شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب» عدد أكبر مما ذكره الذهبي بكثير.

وهذا رغم ما كانت تعاني منه الأمة من فتن وأزمات في الناحية السياسية

وغيرها، مثل حكم العبيديين «المعروفين باسم الفاطميين» في المغرب ومصر، وما لهم من شذوذات وانحرافات كبيرة عن العقيدة الإسلامية، وحكم بني بويه وظهور الباطنية والقرامطة في المشرق وبغداد، مما مهد لحروب الفرنجة، التي عرفت بعد ذلك باسم «الحروب الصليبية».

برغم ذلك ظلَّت الأمة تنجب، والمدارس العلمية تخرج، والقافلة تسير.

أقول هذا بمناسبة الحديث عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (419 - 478 هـ) في الصفحات التالية.

ولا بد لمن يؤرخ لشخصية علمية لها وزنها وقدرها أن يرجع إلى ترجمتها في كتب التراجم والطبقات؛ ليتعرف عليها عن كثب، عن طريق قراءة سيرتها ومسيرتها، وشيوخها وتلاميذها، وما أثر فيها من أحداث، وما عاصرت من شجون، وما أثر عنها من مواقف، كما يتعرف عليها من خلال آثارها العلمية المعبرة عن وجهتها وأفكارها.

وإمام الحرمين الذي نحتفي اليوم به في جامعة قطر - بمناسبة مرور ألف عام على مولده - قد عني به أهل التراجم؛ لطول باعه في العلم، وسعة المساحة التي أثر فيها، وكثرة الذين استفادوا منه، وتميز شخصيته في عصره وما بعد عصره في علوم جمعت بين العقل والنقل، مثل: علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف.

وإذا كان أبو الطيب المتنبي قد قيل عنه: رجل ملأ الدنيا وشغل الناس، فكذلك إمام الحرمين، بيد أن المتنبي شغلهم في ميدان الشعر والأدب، وإمام الحرمين شغلهم في ميدان العلم والفكر.

ولقد أحال محقق «سير أعلام النبلاء» للذهبي في هامش ترجمة إمام الحرمين على أكثر من ثلاثين مرجعًا تحدثت عن الرجل، منها المسهب، ومنها المقتصد، ومنها المقتصر.

ولكني في هذه العجالة سأكتفي بالتركيز على ترجمتين، أعتقد أنهما متميزتان لهذا الإمام، وإنما اخترتهما لتباينهما في الاتجاه والموقف من هذا الإمام الكبير.

أما الأولى: فهي ترجمة «مؤرخ الإسلام» الحافظ شمس الدين الذهبي «ت748هـ» صاحب التصانيف والموسوعات في علم الرجال والتاريخ، وذلك في كتابه «سير أعلام النبلاء»[1].

والثانية: ترجمة العلامة المتكلم الفقيه الشافعي تاج الدين السبكي (ت771هـ) الذي علق بعنف على ترجمة الذهبي، وذلك في كتابه: «طبقات الشافعية الكبرى»[2].

وسأقارن بين الترجمتين بموضوعية وإنصاف ما استطعت، سائلًا الله تعالى أن يوفقنا لخدمة ديننا، والرقي بأمتنا، والوفاء بحق علمائنا وأعلامنا، وأن يغفر لنا زللنا، ويرزقنا الإخلاص في قولنا وعملنا، وأن يتقبلنا ويقبل منا. إنه سميع مجيب.

الدوحة في ذي الحجة 1419هـ الفقير إلى

(1) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ونشر مؤسسة الرسالة - بيروت.
(2) تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، ونشر عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

عفو ربه

إبريل 1999م يوسف القرضاوي

ترجمة إمام الحرمين
بين الحافظين الذهبي والسبكي

ترجم كل من الإمامين: شمس الدين الذهبي (ت 748هـ) وتاج الدين السبكي(ت 771هـ) لإمام الحرمين.

الأول: في كتابه الكبير «سير أعلام النبلاء» في الجزء الثامن عشر منه.

والثاني: في «طبقات الشافعية الكبرى» في الجزء الخامس منه.

كلاهما أثنى على الإمام بما هو أهله، ولكن غلب على ترجمة السبكي المدح والثناء، وغلب على ترجمة الذهبي النقد البناء. وهذا ما جعل السبكي يشتبك في معركة جدلية مع الذهبي، ويكتب فصلًا ضافيًا تحت عنوان «ذكر ما وقع من التخبيط في كلام شيخنا الذهبي، والتحامل على هذا الإمام العظيم، في أمر هذا الإمام الذي هو من أساطين هذه الملة المحمدية، نضرَّها الله»[3].

وسر هذا الاختلاف ما بين الذهبي والسبكي: أن لكل منهما زاوية ينظر منها غير زاوية الآخر؛ لأن لكتاب كل منهما هدفًا غير هدف الآخر.

السبكي يترجم في كتابه لأعلام الشافعية، مبينًا فضائلهم، مشيدًا بمحاسنهم، غير معني بما لهم من هفوات أو هنات، إلا من باب الدفاع عنهم، والرد على خصومهم في غالب الأمر.

والذهبي في كتابه يترجم لأعلام الأمة، بمختلف مذاهبها، بل بمختلف

---

(3) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» بتحقيق د. محمود محمد الطناحي، ود. عبد الفتاح محمد الحلو (187/5).

فرقها، في شتى العلوم والتخصصات، دينية وغير دينية، فترجم للمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمتصوفة، والزهاد والأدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء والنحويين واللغويين والخلفاء، والأمراء والولاة والوزراء، وأهل الغناء والموسيقى، وغيرهم من الفئات.

وهو يذكر للشخص ما له وما عليه، ويغلب عليه - فيما رأيت - الإنصاف، حتى حين يترجم للمعتزلة وغيرهم من الطوائف الذين يراهم مبتدعة في الدين. كما يهتم في ترجمته بالجوانب التي تميز شخصية المترجم، وتبين ملامحه.

* * *

ترجمة الذهبي لإمام الحرمين

على ضوء هذا كانت ترجمة الذهبي لإمام الحرمين، بدأها بقوله: الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي، ضياء الدين ... صاحب التصانيف.

ونقل عن السمعاني قوله: «كان أبو المعالي إمام الأئمة على الإطلاق، مجمعًا على إمامته شرقًا وغربًا، لم تر العيون مثله ...» إلى أن قال: «درس بنظامية نيسابور، واستقام الأمر، وبقي على ذلك ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، مسلمًا له المحراب والمنبر والخطبة والتدريس، ومجلس الوعظ يوم الجمعة، وظهرت تصانيفه، وحضر درسه الأكابر، والجمع العظيم من الطلبة، كان يقعد بين يديه نحو من ثلاثمائة، وتفقه به أئمة.

وذكر الذهبي نشأة إمام الحرمين وتكوينه العلمي وشيوخه في شتى علوم الإسلام والعربية.

كما ذكر شهادة كبار العلماء له، مثل: قول أبي إسحاق الشيرازي: «تمتعوا من هذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان»!

وذكر تصانيفه في الفقه والأصول والكلام والخلاف.

قال: «وكان إذا أخذ في علم الصوفية وشرح الأحوال أبكى الحاضرين.

وكان يذكر في اليوم دروسًا، الدرس في عدة أوراقٍ، لا يتلعثم في كلمةٍ منها».

ثم قال: «وصفه بهذا وأضعافه عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي».

ثم نقل ما ذكره أبو الحسن الباخرزي صاحب «دمية القصر» في حقه: «الفقه فقه الشافعي، والأدب أدب الأصمعي، وفي الوعظ الحسن: الحسن البصري، وكيف ما هو فهو إمام كل إمام، والمستعلي بهمته على كل هام، والفائز بالظفر على إرغام كل ضرغام. إن تصدر للفقه فالمزني من مزنته، وإذا تكلم «من علم الكلام» فالأشعري شعره من وفرته[4]». اهـ.

ولكن في تضاعيف هذه الترجمة للإمام الجويني ذكر الذهبي بعض ما نقله الحفاظ والمؤرخون عنه من مواقف وكلمات، لم تُعجب السبكي، فشن الغارة من أجلها على شيخه الذهبي؛ لأنها تعبر عن تغير رأيه في التأويل أو في علم الكلام، أو موقفه من علم الحديث، ونحو ذلك، وسنعرض لها بعد.

* * *

(4) انظر: «أعلام النبلاء» (18/468 - 477).

ترجمة السبكي لإمام الحرمين

أمَّا السبكي فقد ترجم لإمام الحرمين ترجمة مطولة استغرقت ثمان وخمسين (58) صفحة (من 165 إلى 222) من الجزء الخامس من «طبقات الشافعية الكبرى».

بدأ ترجمته بقوله: «هو الإمام، شيخ الإسلام، البحر، الحبر، المدقق، المحقق، النظار، الأصولي، المتكلم، البليغ الفصيح الأديب، العلم المفرد، زينة المحققين، إمام الأئمة على الإطلاق، عجمًا وعربًا، وصاحب الشهرة التي سارت السراة والحداة بها شرقًا وغربًا».

واستمر في هذه المدائح إلى أن استشهد بقول النابغة:

وما أرى أحدًا في الناس يشبهه وما أحاشي من الأقوام من أحد

ثم ذكر فصلًا في «حال ابتداء الإمام»، تحدث فيه عن نشأته وصباه، وما ظهر عليه من مخايل النجابة وأمارات الفلاح، حتى كان والده يعجب به ويسر، وقد أخذ الفقه عن والده.

قال السبكي: «ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه، وأكثرهم تحقيقًا، بل الكل من بحره يغترفون، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرًا».

ونقل عن عبد الغافر الفارسي: أنه كان يصل الليل بالنهار في التحصيل، ويبكر كل يوم - قبل الاشتغال بدرس نفسه - إلى مسجد أبي عبد الله الخبازي، يقرأ عليه القرآن، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يمكنه، مع مواظبته على

التدريس، وينفق ما ورثه وما كان يدخل له على المتفقه، ويجتهد في المناظرة ويواظب عليها، إلى أن ظهر التعصب بين الفريقين، واضطربت الأحوال والأمور.

وهناك اضطر إلى السفر، والخروج من البلد، فذهب مع المشايخ إلى بغداد، يلتقي بالأكابر من العلماء، ويدارسهم، ويناظرهم، حتى طار ذكره في الأقطار.

ثم ذهب إلى الأرض المقدسة، وجاور بمكة أربع سنوات، وبهذا لقب «إمام الحرمين»، ثم عاد إلى نيسابور بعد ولاية السلطان «ألب أرسلان»، ووزارة «نظام الملك» له. وقد استقرت أمور الفريقين، وانقطع التعصب. فبُنيت له «المدرسة النظامية» بنيسابور، وأقعد للتدريس فيها ... وبقي على ذلك قريبًا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع.

ثم ذكر السبكي فصلًا آخر في «ذكر شيء من ثناء أهل عصره عليه»، مثل: الإمام أبي إسحاق الشيرازي، وشيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني، والحافظ أبي محمد الجرجاني، وقاضي القضاة أبي سعيد الطبري، والفقيه الإمام غانم الموشيلي.

قال أبو إسحاق: «تمتعوا بهذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان».

وقال له مرةً: «يا مفيد أهل الشرق والغرب، لقد استفاد من علمك الأولون والآخرون».

وقال له أخرى: «أنت اليوم إمام الأئمة».

وقال الصابوني - وقد سمع كلام إمام الحرمين في بعض المحافل:

«صرف الله المكاره عن هذا الإمام، فهو اليوم قرة عين الإسلام، والذاب عنه بحسن الكلام».

وقال الجرجاني: «هو إمام عصره، ونسيج وحده، ونادرة دهره، وعديم المثل في حفظه وبيانه ولسانه».

وقال أبو سعيد الطبري - وقد قيل له: إنه لقب «إمام الحرمين»: «بل هو إمام خراسان والعراق؛ لفضله وتقدمه في أنواع العلوم».

قال: «ونقلت من خط ابن الصلاح: أنشد بعض مَن رأى إمام الحرمين:

لم تر عيني أحدًا تحت أديم الفلك

مثل إمام الحرمين النـدب عبد الملك»

قال: وروى ابن السمعاني: أن إمام الحرمين ناظر فيلسوفًا في مسألة «خلق القرآن»، فقذف بالحق على باطله، ودمغه دمغًا، ودحض شبهه دحضًا، ووضح كلامه في المسألة حتى اعترف الموافق والمخالف له بالغلبة.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: «لو ادعى إمام الحرمين اليوم النبوة، لاستغني بكلامه هذا عن إظهار المعجزة»!!

ثم ذكر فصلًا آخر في «ذكر كلام عبد الغافر الفارسي فيه» مع أن معظمه سبق ذكره، ولكنه أعاده قائلًا: «ولا علينا أن نكرر بعض ما مضى ذكره».

وبعد ذلك أضاف فصلًا في «ذكر زيادات أخر في ترجمة إمام الحرمين جمعناها من متفرقات الكتب»، وأهم ما ذكره هنا ما نقله عن ابن السمعاني بسنده عن الإمام أنه قال: «لقد قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم،

وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك في طلب الحق ...».

وسنذكر هذه المقولة كاملة في حديثنا عن مؤاخذات السبكي للذهبي.

ثم ذكر حكايةً أخرى عن ابن السمعاني رواها بسنده عن الحافظ ابن طاهر، بنص رجوع إمام الحرمين عن علم الكلام، ثم قال: «يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة ...».

وسنعرض لذلك فيما بعد.

ثم جاء بعد ذلك فصل الاشتباك مع الذهبي.

ثم ذكر بعد ذلك مناظرات لإمام الحرمين، وفوائد ومسائل من علمه، بلغت نحو ثلاث عشرة صفحة.

* * *

مؤاخذات السبكي على الذهبي

توقف السبكي عند خمسة مقاطع في ترجمة الذهبي لإمام الحرمين، هي:

1- كلامه حول علم الله تعالى بالجزئيات.

2- سؤال الهمذاني، وجواب الإمام.

3- رجوعه عن تأويل الصفات، بل عن علم الكلام عامة.

4- مدى درايته بعلم الحديث.

5- موقف تلامذته بعد موته.

وسنلخص كلًّا منها بحديث مناسبٍ:

1- حول علم الله تعالى بالجزئيات

قال الذهبي في هذه القضية: «قال المازري في «شرح البرهان» في قوله - أي: قول إمام الحرمين: إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات: «وددت لو محوتها بدمي!»»[5].

وذلك لأنها تنافي ما اتفق عليه المسلمون: أن الله يعلم الكليات والجزئيات جميعًا، كما هو صريح آيات القرآن الوفيرة، التي لا تخفى على مسلم، ولهذا كفر علماء المسلمين - منذ عهد الغزالي - الفلاسفة بثلاثة أشياء أساسية، منها: إنكار العلم الإلهي بالجزئيات.

قال السبكي معلقًا على الذهبي: «ومن قبيح كلامه قال: وقال المازري ... إلى قوله: وددت لو محوتها بدمي».

ونقل كلامًا عن الذهبي لم يقله. هذا نصه: قلت «القائل الذهبي»: «هذه لفظة ملعونة، قال ابن دحية: هي كلمة مكذبة للكتاب والسنة يكفر بها، هجره عليها جماعة، وحلف القشيري لا يكلمه بسببها مدة، فجاور وتاب». انتهى[6].

قال السبكي: «ما أقبحه فصلًا مشتملًا على الكذب الصراح! وقلَّة الحق، مستحلًّا على قائله بالجهل بالعلم والعلماء، وقد كان الذهبي لا يدري «شرح البرهان» ولا هذه الصناعة، ولكنه يسمع خرافات من طلبة الحنابلة، فيعتقدها حقًّا، ويودعها تصانيفه.

---

(5) «سير الأعلام» (472/18).

(6) «الطبقات الكبرى» (188/5).

أمام قوله عن الإمام: قال: «إن الله يعلم الكليَّات لا الجزئيات» يقال له: ما أجرأك على الله! متى قال الإمام هذا؟ ولا خلاف بين أئمتنا في تكفير مَن يعتقد هذه المقالة، وقد نصَّ الإمام في كتبه الكلامية بأسرها على كفر مَن يُنكر العلم بالجزئيات، وإنما وقع في «البرهان» في أصول الفقه شيء استطرده القلم إليه، فهم منه المازري، ثم أمر هذا، وذكر ما سنحكيه عنه، وسنجيب عن ذلك، ونعقد له فصلًا مستقلًّا.

وأما قوله: «هذه لفظة ملعونة» فنقول: لعن الله قائلها.

وأما قوله: «قال ابن دحية» إلى آخر ما حكاه عنه.

فنقول: هل تحتاج مثل هذه المقالة إلى كلام ابن دحية؟! ولو قرأ الرجل شيئًا من علم الكلام لما احتاج إلى ذلك، فلا خلاف بين المسلمين في تكفير منكري العلم بالحزئيات، وهي إحدى المسائل التي كفرت بها الفلاسفة.

وأما قوله: «وحلف القشيري لا يكلمه بسببها مدة» فمَن نقل له ذلك؟ وفي أي كتاب رآه؟ وأقسم بالله يمينًا بارة: إن هذه مختلقة على القشيري، وقد كان القشيري من أكثر الخلق تعظيمًا للإمام، وقدمنا عنه قوله في حقِّه: لو ادعى النبوة لأغناه كلامه عن إظهار المعجزة!

وابن دحية لا تُقبل روايته؛ فإنه متهم بالوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بالوضع على غيره؟! والذهبي نفسه معترف بأنه ضعيف، وقد بالغ في ترجمته في الإزراء عليه، وتقرير أنه كذاب، ونقل تضعيفه عن الحافظ أيضًا، وعن ابن نقطة، وغير واحد. وأخبر الناس به الحافظ ابن النجار، اجتمع به وجالسه، وقال في ترجمته: «رأيت الناس

مجمعين على كذبه وضعفه»، قال: «وكانت أمارات ذلك لائحة عليه». وأطال في ذلك.

وبالجملة لا أعرف محدثًا إلا وقد ضعف ابن دحية، وكذَّبه، لا الذهبي، ولا غيره، وكلهم يصفه بالوقيعة في الأئمة، والاختلاف عليهم، وكفى بذلك.

وأما قوله: «ونفي بسببها مدةً مجاورًا وتاب» فمن البُهت! لم ينفِ الإمامَ أحدٌ، وإنما هو خرج ومعه القشيري وخلق في واقعة الكندري التي حكيتها في ترجمة الأشعري، وفي ترجمة أبي سهل ابن الموفق، وهي واقعة مشورة خرج بسببها الإمام والقشيري، والحافظ البيهقي وخلق، كان سببها: أن الكندري أمر بلعن الأشعري على المنابر، ليس غير ذلك». انتهى.

وقد قرأنا ما كتبه الذهبي في «النبلاء» فلم نجد فيه هذه العبارات، لم يقل «هذه لفظة ملعونة»، ولم ينقل شيئًا عن ابن دحية في ذلك، كل ما قاله: «هذه هفوة اعتزال، هُجر أبو المعالي بسببها، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه، ونفي بسببها، فجاور وتعبد، وتاب - ولله الحمد - منها، كما أنه في الآخر رجح مذهب السلف وأقره»[7]. انتهى.

فلا أدري: هل هناك نسخة أخرى نقل منها السبكي؟ يحتمل. ويكون ما في النسخة المطبوعة المحققة هو آخر ما صاغه الذهبي في القضية، إن لم يكن ذلك الكلام مدسوسًا عليه، ففرق بين عبارة: «هذه هفوة اعتزال»، وعبارة: «هذه لفظة ملعونة»، والنقل عن ابن دحية أن قائلها يكفر بها.

وأنا مع السبكي في أن إمام الحرمين لم يُنْفَ من أجل ذلك، وإنما خرج

(7) «أعلام النبلاء» (472/18).

ومن معه من أجل الفتنة المذكورة.

ونلاحظ أن الذهبي هنا معتمد على المازري، فالذهبي ليس من علماء الكلام، فهو لا يُحسن هذا العلم ولا يُواليه، فاعتمد على متكلم إمام، وهو في الوقت ذاته أشعري، بل أشعري متعصب، كما يقول السبكي نفسه، وهو المازري.

ثم هو حاول أن يخفف من صدمة هذا القول، فذكر احتمالًا آخر فيه حين قال: «وقيل: لم يقل بهذه المسألة تصريحًا، بل ألزم بها؛ لأنه قال بمسألة الاسترسال فيما ليس بمتناهٍ من نعيم أهل الجنة. فالله أعلم».

ومن المعلوم: أن القول الصحيح أن العالم لا يُؤاخذ بلازم مذهبه، فلازم المذهب ليس بمذهب، وخصوصًا إذا وجد ما يُعارضه من مسلمات المذهب.

ثم ذكر في «النهاية»: أنه ندم على هذه الكلمة وتاب - لله الحمد - منها، بل تاب من علم الكلام كله، كما سنذكر بعد [8].

دفاع السبكي عن الإمام:

قال السبكي: «ثم اعلم أن لهذا الإمام من الحقوق في الإسلام، والمناضلة في الكلام عن الدين الحنيف ما لا يخفى على ذي تحصيل، وقد فهم عنه المازري إنكار العلم بالجزئيات، وأفرط في التغليظ عليه، وأشبع القول في تقرير إحاطة العلم القديم بالجزئيات، ولا حاجة به إليه، فإن أحدًا لم ينازعه فيه، وإنما هو تصور أن الإمام ينازعه فيه.

---

(8) المرجع نفسه.

ومعاذ الله أن يكون ذلك.

ولقد سمعت الشيخ الإمام - يعني: والده - رحمه الله غير مرة يقول: لم يفهم المازري كلام الإمام، ولم أسمع منه زيادة على هذا، وقلت: أنا له رحمه الله إذ ذاك: لو كان الإمام على هذه العقيدة لم يحتج إلى أن يدأب نفسه في «تصنيف النهاية» في الفقه، وفيه الجزئيات لا تنحصر، «والعلم» غير متعلف على هذا التقدير عنده بها.

وقلت له أيضًا: هذا كتاب «الشامل» للإمام في مجلدات عدة في علم الكلام، والمسألة المذكورة حقّها أن تقرر فيه، لا في «البرهان»، فلم لا يكشف عن عقيدته فيه؟! فأعجبه ذلك.

وأقول الآن قبل الخوض في كلام الإمام المازري: «لقد فحصت عن كلمات هذا الإمام في كتبه الكلامية، فوجدت إحاطة علم الله تعالى عنده بالجزئيات أمرًا مفروغًا منه، وأصلًا مقررًا يكفر من خالفه فيه». اهـ.

وذكر مواضع من كلامه تدل على ذلك من كتابيه: «الشامل» و«الإرشاد».

«وكذلك في «البرهان» في «باب النسخ» صرح بأن الله تعالى يعلم على سبيل التفصيل كل شيء.

إذا عرفت ذلك، فأنا على قطع بأنه معترف بإحاطة العلم بالجزئيات.

فإن قلت: وما بيان هذا الكلام الواقع في «البرهان»؟

قلت: «العالم من يدعو الواضح واضحًا، والمشكل مشكلًا»، وهو كلام

مشكل، بحيث أبهم أمره على المازري، مع فرط ذكائه وتضلعه بعلوم الشريعة، وأنا أحكيه ثم أقرره، وأبين لك أن القوم لم يفهموا إيراد الإمام، وأن كلامه المشار إليه مبني على إحاطة العلم القديم بالجزئيات، فكيف يؤخذ منه خلافه؟».

قال السبكي: «والذي أراه لنفسي ولمن أحبه الاقتصار على اعتقاد أن علم الله تعالى محيط بالكليات والجزئيات، جليلها وحقيرها، وتكفير مَن يخالف في واحد من الفصلين، واعتقاد أن هذا الإمام برئ من المخالفة في واحد منهما، بدليل تصريحه في كتبه الكلامية بذلك، وأن واحدًا من الأشاعرة لم ينقل هذا عنه، مع تتبعهم لكلامه، ومع أن تلامذته وتصانيفه ملأت الدنيا، ولم يعرف أن أحدًا عزا ذلك إليه، وهذا برهان قاطع على كذب مَن تفرد بنقل ذلك عنه؛ فإنه لو كان صحيحًا لتوفرت الدواعي على نقله، ثم إذا عرض هذا الكلام نقول: هذا مشكل نضرب عنه صفحًا، مع اعتقاد أن ما فهم منه من أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات ليس بصحيح»[9].

وأعتقد أن هذا الكلام يكفي في الدفاع عن إمام الحرمين، وإن كان السبكي قد استرسل وأفاض في الدفاع عنه - على طريقة المتكلمين - بما لا حاجة لنا إليه.

* * *

(9) «الطبقات الكبرى» (5/192 - 196).

2- سؤال الهمذاني وجواب الإمام

ومن أبرز ما اعترض عليه السبكي هنا ما ذكره الذهبي وكرره مرتين في ترجمته من سؤال المحدث أبي جعفر الهمذاني لإمام الحرمين، وتحيره في الإجابة عنه!

نقل ذلك الذهبي عن الحافظ محمد بن طاهر قال: «حضر المحدث أبو جعفر الهمذاني مجلس وعظ أبي المعالي، فقال: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه؟ فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضَّرورة التي نجدها: ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟! أو قال: فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة التي نجدها؟! فقال: يا حبيبي، ما ثم إلا الحيرة! ولطم على رأسه، ونزل. وبقي وقت عجيب ... وقال فيما بعد: حيَّرني الهمذاني!»[10].

وقد أعاد الذهبي هذه القصة بإسنادٍ آخر وبصيغة مقاربة، قال: «أخبرنا يحيى بن أبي منصور الفقيه في كتابه، عن عبد القادر الحافظ، أخبرنا أبو العلاء الهمذاني، أخبرنى أبو جعفر الحافظ: سمعت أبا المعالي وسُئل عن قوله: {**ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ**} [طه: 5] فقال: كان الله ولا عرش. وجعل يتخبَّط، فقلت: هل عندك للضَّرورات من حيلة؟ فقال: ما معنى هذه الإشارة؟ قلت: ما قال عارف قط: يا رباه! إلا قبل أن يتحرك لسانه قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضروري عندك من

(10) «سير الأعلام» (18/474، 475).

حيلة فتُنبئنا نتخلص من الفوق والتحت؟! وبكيت وبكى الخلق، فضرب بكمه على السرير، وصاح بالحيرة، ومزق ما كان عليه، وصارت قيامة في المسجد، ونزل يقول: يا حبيبي! الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة!!»[11].

قال السبكي: «قلت: قد تكلَّف لهذه الحكاية وأسندها بإجازة على إجازة، مع ما في إسنادها ممن لا يخفى محاطه على الأشعري، وعدم معرفته بعلم الكلام.

ثم أقول: يا لله ويا للمسلمين! أيقال عن الإمام أنه يتخبط عند سؤال سأله إياه هذا المحدث، وهو أستاذ المناظرين، وعلم المتكلمين؟! أوكان الإمام عاجزًا عن أن يقول له: كذبتَ يا ملعون، فإن العارف لا يحدث نفسَه بفوقية الجسمية، ولا يحدد ذلك إلا جاهل يعتقد الجهة!

بل نقول: لا يقول عارف: يا رباه، إلا وقد غابت عنه الجهات، ولو كانت جهة فوق مطلوبة لما منع المصلي من النظر إليها، وشدد عليه في الوعيد عليها.

وأما قوله: «صاح بالحيرة» وكان يقول: «حيرني الهمذاني» فكذب ممن لا يستحي، وليت شعري! أي شبهة أوردها؟! وأي دليل اعترضه حتى يقول: حيرني الهمذاني؟!

ثم أقول: إن كان الإمام متحيرًا لا يدري ما يعتقد، فواهًا على أئمة المسلمين من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة إلى اليوم؛ فإن الأرض لم تخرج من لدن عهده أعرف منه بالله ولا أعرف منه! فيالله ماذا يكون حال الذهبي

(11) المصدر السابق (477/18).

وأمثاله إذا كان مثل الإمام متحيرًا؟! إن هذا لخزي عظيم، ثم ليت شعري! مَن أبو جعفر الهمذاني في أئمة النظر والكلام؟! ومَن هو من ذوي التحقيق من علماء المسلمين؟!

ثم أعاد الذهبي الحكاية عن محمد بن طاهر، عن أبي جعفر، وكلاهما لا يقبل نقله، وزاد فيها أن الإمام صار يقول: يا حبيبي، ما ثم إلا الحيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لقد ابتلي المسلمون من هؤلاء الجهلة بمصيبة لا عزاء بها»[12]. انتهى.

وأقول: إن الذهبي رجل مؤرخ وهو يعتمد - كسائر الحفاظ والمؤرخين المسلمين - على الرواية بالأسانيد، فهو لا يلقي الكلام على عواهنه، وإنما يسنده إلى أهله ممن عاصر أو شاهد أو سمع.

وظني أن الحكاية لا بد أن يكون لها أصل، ولكن ربما وقعت المبالغة في وصف التفاصيل.

إذ يصعب على المرء أن يصدق أن مثل إمام الحرمين النظار المتكلم المناظر البليغ المتمكن، الذي لم يكن يتلعثم في درسٍ أو مناظرةٍ: يتخبط أمام سؤال من معارضٍ، أو يلطم على رأسه، أو يصيح بالحيرة!

وقد كان يمكن أن يقول للسائل: أنا أنازع فيما تقول، إن ما تدعوه بأنه ضرورة ليس ضرورة، وإنما هو عادة، يتلقنها الأبناء عن الآباء، والخلف عن السلف، وربما توجد أمم لا تفعل ذلك.

---

(12) «الطبقات الكبرى» (190/5، 191).

وقد يمكن أن يقول: إن التَّوجه إلى السماء أو إلى العلو، لا يعني أن الله في السماء بمعنى أنه محصور فيها، ولكن الخالق الأعظم للكون لا يمكن أن يوصف إلا بأنه الأعلى، وأنه فوق الكون، وأن الكون في جهة السفل والتحت.

وهذا ما نقل عن والده الإمام أبي محمد الجويني في رسالة «إثبات الاستواء والفوقية» المنشورة في «مجموعة الرسائل المنيرية» (ج1: 174 - 187)، وفيها يثبت لله تعالى الاستواء والفوقية، كما يليق بكماله، وكما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وهو ما اقتبسه منه من بعده، ووضحه العلامة الواسطي الشافعي الصوفي الذي كان يُسميه ابن تيمية «جنيد زمانه»، وكان معاصرًا له (ت711هـ)، وذلك في رسالة «النصيحة»، ورضيه السلفيون، ونقل العلامة السفاريني عنه ذلك في «شرح عقيدته»، والسيد رشيد رضا في تفسير «المنار».

على أن الرجل - إمام الحرمين - قد ترقى عن ذلك كله، وارتضى مذهب السلف منهاجًا له، كما يتجلى ذلك في الفقرة التالية، ولله الفضل والمنة.

* * *

3- رجوعه عن التأويل وعلم الكلام

لعل أظهر ما اشتهر به إمام الحرمين عند الناس هو: علم الكلام، فهو أبرز أشعري بعد الأشعري، بل هو الذي وصف بأنه: «إذا تكلم فالأشعري شعرة من وفرته!»، وهو المؤسس الثاني للمذهب الأشعري.

ومن هنا كان أول ما نشر من كتبه: الكتب الكلامية، مثل: «الشامل» و«الإرشاد» و«النظامية» و«اللمع».

وتأخر نشر كتابه «البرهان» في أصول الفقه، و«الغياثي» في السياسة الشرعية عنها، أما كتابه الذي توفر عليه في أواخر سني عمره، وهو: «نهاية المطلب في دراية المذهب» فلم ير النور بعد، ويوشك أن يكون - بفضل الله تعالى ثم بجهد أخينا الدكتور عبد العظيم الديب، شكر الله سعيه، وبارك جهده.

كان إمام الحرمين أشعريًّا قحًّا في أول أمره، محاميًا عن الأشعرية، كما عرفت عند الناس، لا كما جاء عن الأشعري في عدد من كتبه، ولا سيما «الإبانة في أصول الديانة» التي حققتها الدكتورة فوقيه محمود، و«رسالة أهل الثغر» التي حققها أخونا الدكتور محمد الجليند.

وقد ذكر الإمام الذهبي موقفًا لإمام الحرمين في الدفاع عن موقف الأشعرية في قضية «أفعال العباد»، ومن المعلوم للدارسين أن موقف الأشعري في ذلك من أضعف المواقف، حتى ضرب به المثل في الخفاء، فقيل: أخفى من كسب الأشعري! وقيل: ثلاثة من مجالات الكلام: طفرة النظام، وكسب الأشعري، وأحوال أبي هاشم.

والعجيب أن السبكي لم يعقب على هذا الموقف، مع أنه لم يدع شيئًا من هذا اللون مما ذكره الذهبي إلا تعقبه بعنفٍ، بل بتجريح!.

والحق أن من الفضائل التي تميز بها إمام الحرمين، وتبدو لكل مَن درس حياته وتراثه بلا تعصبٍ له ولا عليه: الإخلاص في طلب الحقيقة، عن طريق العقل الناقد، والشرع الضابط، فإذا كشفت له الحقيقة قناعها، ومدت له شعاعها، بادر إلى الإيمان بها واعتناقها، والإعلان عنها بشجاعةٍ لا نظير لها، وإن كانت مخالفةً لما عليه الجمهور، أو ما عليه المذهب، وما مضى عليه دهرًا من حياته، وقضى سنين عددًا وهو يدرسه ويُصنف فيه، ويذود عنه، ويحث على اتباعه.

وهذا واضح في مذهبه «العقدي» أكثر منه في مذهبه الفقهي، فمن المعروف والمشهور: أن إمام الحرمين كان من كبار متكلمي الأشاعرة، المؤولين لآيات الصفات وأحاديثها، المدافعين عن التأويل. وقد برز في «علم الكلام» واشتهر به، وصنَّف فيه التصانيف التي سارت بذكرها الركبان، مثل: «الشامل» و«الإرشاد» و«اللمع» و«النظامية» وغيرها، وأخذ عنه هذا العلم كثيرون من تلاميذه النوابغ. وكان يتكلَّف في تأويله والدفاع عن مذهبه الأشعري إلى حد الاعتساف أحيانًا، الذي لا يرضاه المنصفون. وهذا شأن البشر.

وقد ذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي في «سير الأعلام» ما جرى بينه وبين أبي القاسم بن برهان من مناظرة في «أفعال العباد»، وهو ما نقله عن العلامة الحنبلي ابن عقيل في «فنونه»، قال: «قال عميد الملك: قدم أبو المعالي فكلم أبا القاسم بن برهان في العباد: هل لهم أفعال؟ فقال أبو المعالي:

إن وجدت آية نقتضي ذا، فالحجة لك، فتلا: {**وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ**} [المؤمنون: 63]، ومد بها صوته، وكرر: {**هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ**}، وقوله تعالى: {**لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ**} [التوبة: 42]. أي: كانوا مستطيعين، فأخذ أبو المعالي يستروح إلى التأويل. فقال - أي: ابن برهان: والله إنك بارد! تتأول صريح كلام الله لتصحح بتأويلك كلام الأشعري!! وأكله ابن برهان - أي: أعياه - بالحجة، فبهت»[13].

هكذا كان أبو المعالي إمام الحرمين، دهرًا من حياته، ولا غرو أن اعتبره بعض الباحثين المؤسس الثاني للمذهب الأشعري، وكتب أستاذنا الشيخ علي جبر في كلية أصول الدين رسالة الأستاذية له عن «إمام الحرمين باني الأشعرية الحديثة»، وإن لم نرها مطبوعة ... ولكن الله شرح صدره للحق، فوجدناه في أواخر حياته قد غير نهجه، ورجع عن طريق التأويل - طريق الخلف - إلى طريق السلف في ترك الخوض، والانكفاف عن التأويل، ولم يستنكف عن إعلان ذلك بكل صراحة وجلاء، وهو ما ذكره في «الرسالة النِّظامية في الأركان الإسلامية»[14].

قال إمام الحرمين: «اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها، وإجراؤها على موجب ما يبرزه أفهام أرباب اللسان فيها.

---

(13) «سير أعلام النبلاء» (469/18).

(14) طبعت في القاهرة بتحقيق المحدث الفقيه الحنفي المعروف الشيخ محمد زاهد الكوثري. وقد طبعت تحت عنوان «العقيدة النظامية»، ويبدو أن الذي طُبع منها فقط هو جانب العقيدة، وهو ما وجد منها، إذ لم يعثر على باقيها إلى الآن.

فرأى بعضهم تأويلها، والتزام ذلك في القرآن، وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. والذي نرتضيه رأيًا، وندين الله به عقدًا: اتِّباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع، وترك الابتداع. والدليل السمعي القاطع في ذلك: أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام المستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدًا في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغًا أو محتومًا؛ لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، فإذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل؛ كان ذلك قطعًا بأنه الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب. وعند إمام القراء وسيدهم الوقف على قوله تعالى: {**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ**} [آل عمران: 7] من العزائم، ثم الابتداء بقوله: {**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ**}، ومما استحسن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سُئل عن قوله تعالى: {**ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ**} [طه: 5] فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة.

فليجر آية الاستواء والمجيء[15] وقوله: {**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**} [ص: 75]، {**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ**} [الرحمن: 27]، و{**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**} [القمر: 14] وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره، على ما ذكرناه، فهذا بيان ما يجب

(15) آية المجيء قوله تعالى: {**وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**} [الفجر: 22].

لله»[16].

ونقل الحافظ الذهبي عن الفقيه غانم الموشيلي قال: «سمعت الإمام أبا المعالي يقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما اشتغلت بالكلام»[17].

وقال الذهبي: «قال الحافظ محمد بن طاهر: سمعتُ أبا الحسن القيرواني الأديب - وكان يختلف إلى درس الأستاذ أبي المعالي في الكلام - فقال: سمعت أبا المعالي اليوم يقول: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به»[18].

وقد علَّق السبكي على هذا القول فقال: «يُشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة على إمام الحرمين، وابن طاهر عنده تحامل على إمام الحرمين، والقيرواني المشار إليه: رجل مجهول».

ولكن يعكر على هذا ما نقله الموشيلي عنه، ولم يتعقبه السبكي، ثم الأقوال الأخرى لإمام الحرمين في رجوعه إلى طريق السلف تؤكد صحة هذه الرواية. كما أن روايات الحفاظ لا تسقط بمثل التهم التي ذكرها السبكي، وأي تحامل على إمام الحرمين في هذه الرواية؟! بل فيها ما يرفع من قدره.

وحكى الفقيه أبو عبد الله الحسن بن العباس الرستمي، قال: «حكى لنا أبو الفتح الطبري الفقيه قال: دخلتُ على أبي المعالي في مرضه، فقال: اشهدوا علي أني قد رجعتُ عن كل مقالةٍ تُخالف السنة، وأني أموت على ما يموت

(16) «العقيدة النظامية» (ص23، 24)، وقد نقل هذا النص الذهبي في «الأعلام» (473/18، 474).

(17) «سير أعلام النبلاء» (473/18).

(18) «أعلام النبلاء» (474/18)، و«المنتظم» (19/9)، و«طبقات السبكي» (186/5).

عليه عجائز نيسابور»[19].

وقد أقر السبكي هذه الرواية، ولم يعترض عليها.

قال الذهبي: «وقرأت بخط أبي جعفر «محمد بن أبي علي»: سمعتُ أبا المعالي يقول: قرأتُ خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني»[20] - يعني نفسه!.

يقصد بالذي نهى عنه أهل الإسلام: علم الكلام، فقد نهى عنه إمامه الشافعي، ونهى عنه مالك وأحمد، وغيرهما من الأئمة.

ويبدو أنه تأوَّل كلام أهل الإسلام أنهم نهوا مَن يخاف عليه السباحة في هذا البحر الخضم، ويخشى عليه من الغرق، وهو يرى نفسه أقوى من ذلك.

كما قصد بتخليه أهل الإسلام وعلومهم الظاهرة: أنه دخل في العلوم العقلية والفلسفية، وتغلغل فيها، ولم يشتغل بالعلوم النقلية من الحديث والآثار ونحوها، كما اشتغل بها غيره.

وهذا القول من هذا الإمام الكبير الذي أنفق عمره في هذا اللون من الثقافة العقلية التي امتزجت بفلسفة اليونان وجدلياتهم التي لا تنقع غليلًا، ولا تهدي

---

(19) «أعلام النبلاء» (474/18)، و«طبقات السبكي» (191/5).

(20) الخبر في «المنتظم» لابن الجوزي (19/9)، «طبقات الشافعية» للسبكي (585/5).

سبيلًا ... هذا القول يؤكد أن لا طريق أهدى ولا أجدى من طريقة القرآن في تأسيس العقيدة، وهي الأقرب إلى الفطرة، والألصق بالعقل والوجدان، وهو ما كان عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان. وإنما يُستفاد من «علم الكلام» في الدفاع عن العقيدة في مواجهة المخالفين من أصحاب الأديان والفلسفات الأخرى، والفرق المبتدعة.

وهو ما وضَّحه من بعد تلميذه حجة الإسلام الغزالي، حين بيَّن أن علم الكلام: علم محدث أريد به حراسة عقائد العوام من تشويش المبتدعة.

وقال في «الإحياء»: «اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار - أي الأحاديث - مشتملة عليه. وما خرج عنهما فهو إمَّا مجادلة مذمومة، وهي من البدع ... وإمَّا مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين، ولم يكن شيء منه مألوفًا في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبتت جماعة لفقوا لها شبهًا، ورتَّبوا فيها كلامًا مألوفًا، فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذونًا فيه، بل صار من فروض الكفايات. وهو القدر الذي يقابل به المبتدع، إذا قصد الدعوة إلى البدعة، وذلك إلى حد محدود»[21].

فلا غرو أن يروي عن إمام الحرمين ما يروي من البراءة من «علم الكلام» والعودة إلى طريقة القرآن.

---

(21) «إحياء علوم الدين» (22/1، 23) طبعة دار المعرفة - بيروت.

وقد اجتهد العلامة تاج الدين السبكي في «طبقاته الكبرى» أن ينحو بهذا الكلام الجلي الواضح من إمام الحرمين منحى آخر غير ما يتبادر منه، دفاعًا منه عن «علم الكلام» الموروث، ووجه كلام هذا الإمام العظيم الشجاع المخلص إلى معانٍ متكلَّفةٍ لا ينشرح لها الصدر.

وتحامل السبكي على شيخه الإمام الذهبي تحاملًا لا يُقبل من مثله في مثله. فالواقع أني ما رأيتُ مؤرخًا منصفًا مثل الذهبي، حتى مع أعلام المعتزلة وأمثالهم.

على أن إمام الحرمين ليس هو وحده الذي انتهى إلى رفض التأويل، وترجيح مذهب السلف، وتفويض حقائق هذه الألفاظ ومعانيها إلى الله تعالى.

فقد رجع من قبله شيخه أبو الحسن الأشعري في كتابه «الإبانة»، وفي «رسالته إلى أهل الثغر»، وغيرهما، ورجع من بعده تلميذه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وذلك في كتابه: «إلجام العوام عن علم الكلام».

ولكن موقف شيخه إمام الحرمين كان أصرح وأوضح، فإن الغزالي اعتبر علم الكلام شأن الخواص، وجمهرة العلماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين، وغيرهم يعتبرون من العوام في هذا الأمر عند الغزالي.

أما الخواص، فقد يوجد في كل عصر منهم واحد، أو اثنان.

ورجع بعد ذلك: الفخر الرازي الذي كان من أكبر المحامين المدافعين عن التأويل، وصنَّف فيه أكثر من كتاب، مثل: «تأسيس التقديس» وغيره. ثم قال في الطور الأخير من حياته العلمية: «لقد تأمَّلتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق

طريقة القرآن: اقرأ في الإثبات: {**ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ**} [طه: 5]، {**إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ**} [فاطر: 10]، وأقرأ في النفي: {**لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ**} [الشورى: 11]، ومَن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي!»[22].

وجاء في «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (82/2) ما نصه: «قال ابن الصلاح: أخبرني القطب الطوغاني مرتين: أنه سمع فخر الدين الرازي يقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى»[23].

قال الإمام الشوكاني في «إرشاد الفحول»: «وهؤلاء الثلاثة - أعني: الجويني والغزالي والرازي - هما الذين وسعوا دائرة التأويل، وطولوا ذيوله، وقد رجعوا آخرًا إلى مذهب السلف، كما عرفت، فللَّه الحمد، كما هو أهله»[24].

على أن إمام الحرمين لم يكتفِ بالرجوع إلى مذهب السلف نظريًّا، بل حث الأئمة والمسئولين عن قيادة الأمة - والمحافظة على الدين أول واجباتهم - أن يجعلوا مذهب السلف ونهجهم في تعلم التوحيد هو ما ينبغي أن يعلم للكافة.

أكد في «الغياثي» أن الذي يحرص الإمام عليه: «جمع عامة الخلق على مذهب السلف السابقين قبل أن نبغت الأهواء، وزاغت الآراء: وكانوا رضي الله عنهم ينهون عن التعرض للغوامض، والتعمق في المشكلات، والإمعان

---

(22) «سير النبلاء» (500/21).

(23) ذكر ذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط في مقدمته لكتاب «أقاويل الثقات» (ص22) ط. مؤسسة الرسالة.

(24) «إرشاد الفحول» (49/2) بتحقيق د. شعبان محمد إسماعيل.

في ملابسة المعضلات، والاعتناء بجمع الشبهات، وتكلف الأجوبة عما لم يقع من السؤالات، ويرون صرف العناية إلى الاستحثاث على البر والتقوى، وكف الأذى، والقيام بالطاعة حسب الاستطاعة، وما كانوا ينكفون رضي الله عنهم عما تعرض له المتأخرون عن عي وحصر، وتبلد في القرائح. هيهات!

فقد كانوا أذكى الخلائق أذهانًا، وأرجحهم بيانًا، ولكنهم استيقنوا أن اقتحام الشبهات داعية الغوايات، وسبب الضلالات، فكانوا يُحاذرون في حقِّ عامَّة المسلمين ما هم الآن به مبتلون، وإليه مدفوعون، فإن أمكن حمل العوام على ذلك فهو الأسلم»[25].

ونعم ما أوصى به هذا الإمام:

فكل خيرٍ في اتِّباع مَن سلف وكل شرٍّ في ابتداع مَن خلف

* * *

(25) انظر: «الغياثي» فقرة (280) بتحقيق د. عبد العظيم الديب.

4- إمام الحرمين وعلم الحديث

عُرف إمام الحرمين بالتقدم والإمامة في عددٍ من العلوم الإسلامية، مثل: أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف، ولكن لم يكن له قدم راسخة في الحديث وعلومه، وسبحان مَن وزَّع المواهب.

وقد عبَّر عن هذا الجانب مؤرخو الإمام والمعقبون عليه بعبارات مختلفة، مغزاها كلها: أنه لم يكن من أهل هذا الشأن.

قال ذلك السمعاني في «أنسابه»: «كان قليل الرواية للحديث، معرضًا عنه»[26].

وقال ياقوت في «معجم البلدان» نفس ما قاله السمعاني[27].

وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» في تعليقه على ما قاله إمام الحرمين حول ثبوت الطمأنينة في الاعتدال: «وهو من المواضع العجيبة التي تقضي على هذا الإمام بأنه كان قليل المراجعة لكتب الحديث المشهورة، فضلًا عن غيرها، فإن ذكر الطمأنينة في الجلوس ثابت في الصَّحيحين»[28].

وقال نحوه من قبله ابن الصلاح في «الفتاوى الحديثية» وهو - كابن حجر - من الشافعية المرموقين.

ولعل أشد العبارات في ذلك هي عبارة الإمام الذهبي في «أعلام النبلاء»

---

(26) «الأنساب» (386/3).

(27) «معجم البلدان» (193/2).

(28) «تلخيص الحبير» (256/1، 257) بتعليق عبد الله هاشم اليماني.

حيث قال: «كان هذا الإمام مع فرط ذكائه، وإمامته في الفروع وأصول المذهب، وقوة مناظرته: لا يدري الحديث كما يليق به، لا متنًا ولا إسنادًا. ذكر في كتاب «البرهان» حديث معاذ في القياس، فقال: هذا مدون في الصحاح، متفق على صحته. قلت - والقائل الذهبي: بل مداره على الحارث بن عمرو، وفيه جهالة، عن رجال من أهل حمص، عن معاذ، فإسناده صالح»[29]. اهـ.

وقد أغضبت هذه العبارة أخانا الدكتور عبد العظيم الديب، محقق كتب الإمام - كما في مقدمة تحقيقه لـ «الدرة المضية» لإمام الحرمين - كما أغضبت من قبله العلامة تاج الدين السبكي في «طبقاته الكبرى».

والعبارة فيها شدة ولا ريب، ولكن لا إلى الحد الذي أغضب الشيخ السبكي والدكتور الديب، فقد قيَّد الذهبي قوله بأنه: «لا يدري الحديث كما يليق به»، سواء كان هذا الضمير للحديث أم للإمام نفسه، أي: لا يدريه على الوجه اللائق بهذا العلم أو بهذا الإمام.

وهذا حق لا أحسب أن إمام الحرمين نفسه ينكره. وقوله عن حديث معاذ ما قال لا يتفق مع ما قرره أهل الحديث إلا بتأويل وتكلف. وقد رأيناه في كثير من الأحيان يستدل بأحاديث ضعيفة، بل شديدة الضعف، حتى في «الأصول»[30]، وأحاديث لا يعرفها المحدثون أنفسهم، وقد يعزو الحديث إلى

---

(29) «أعلام النبلاء» (18/471، 472).

(30) كاستدلاله بحديث: «**أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم**»، «البرهان» فقرة (1548)، وقد ضعفه ابن حزم، وابن عبد البر، وغيرهما، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (58): «موضوع»، واستدلاله بحديث: «**اختلاف أمتي رحمة**»،

غير مَن أخرجه، أو إلى غير صحابيه ... إلى آخره.

وفي رأيي: أن الرجل غني عن هذا كله، فهو - بلا نزاع - ليس من المدرسة الحديثية النقلية، بل هو من المدرسة التي تجمع بين العقل والنقل، وكلامه نفسه رضي الله عنه يدل على هذا بوضوح وصراحة. وقد رد هو والباقلاني من قبله والغزالي من بعده: حديث: «**لأزيدن على السبعين**» في الاستغفار لابن أبي، وهو متفق عليه؛ لاعتقادهم أنه ينافي الفهم الصحيح لآية: {**ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**} [التوبة: 80][31]، لنقرأ له هذه العبارة في «البرهان» يقول وهو يناقش تحمل الرواية وجهة تلقيها: «ولو عرض ما ذكرناه على جملة المحدثين لأبوه ... وهم عصبة لا مبالاة بهم في حقائق الأصول، وإذا نظر الناظر في تفاصيل هذه المسائل صادفها خارجةً في الرد والقبول على ظهور الثقة وانخرامها، وهذا هو المعتمد الأصولي، فإذا صادفناه لزمناه، وتركنا وراءه المحدثين يتقطعون في وضع ألقاب، وترتيب أبواب»[32].

فهذه نظرته إلى «المحدثين»: «عصبة لا مبالاة بهم في حقائق الأصول»، وهو لا يعبأ أن يتركهم وراءه يتقطعون في وضع ألقاب، وترتيب أبواب!

على أن هذا - عدم دراية الحديث كما يليق به - ليس خاصًّا بإمام

«الغياثي» (277)، والحديث لم يعرف له سند. وقد افترض إمام الحرمين في «الغياثي» اندراس الشريعة، وانقراض حملتها تمامًا، وبنى على ذلك أحكامًا، وهو مخالف لأحاديث «بقاء الطائفة المنصورة» التي صحَّت واشتهرت واستفاضت عن عدد من الصحابة، وربما تواترت.

(31) انظر: الحديث رقم (4672) من البخاري مع «الفتح» (ج8/ص337، 338).

(32) «البرهان» (ج1) فقرة (592)، وفقرة (593).

الحرمين، بل هو عام في فحول المدرسة الأشعرية كلها.

فهكذا كان الأشعري والباقلاني من قبل، وكذلك كان الغزالي والرازي والآمدي وغيرهم من بعد.

وربما أغناه عن العناية بالحديث رجال نذروا أنفسهم لخدمته، وهيَّأهم الله لذلك، وخصوصًا من الشافعية، وكلٌّ مُيسر لما خلق له.

وقد كان في عصر إمام الحرمين من هؤلاء أمثال: الحافظ المتقن الكبير أبي بكر البيهقي (ت 458هـ) صاحب «السنن الكبرى» و«معرفة السنن والآثار» و«جامع شعب الإيمان»، وغيرها من الموسوعات، والذي قال فيه إمام الحرمين نفسه: «ما من شافعي إلا وللشافعي في عنقه منه، إلا البيهقي؛ فإنه له على الشافعي منة؛ لتصانيفه في نصرته لمذهبة وأقاويله»[33].

* * *

(33) «الطبقات الكبرى» للسبكي (10/4) في ترجمة البيهقي، وقد وقع للبيهقي مع والد إمام الحرمين الشيخ محمد حادثة معروفة حين شرع في تأليف كتاب «المحيط» الذي عزم فيه ألا يتعبد بالمذهب، وإنما يعتمد على الأحاديث، وأصدر منه ثلاثة أجزاء اطلع عليها البيهقي، وكتب له رسالة يبين له فيها أوهامه وأغلاطه فيما استند إليه من حديث، فشكر له الشيخ، وأعرض عن تكميل الكتاب، وقد ذكر ذلك الأستاذ السيد أحمد صقر في مقدمته لكتاب البيهقي في «مناقب الشافعي»، وكذلك د. أحمد بن عطية الغامدي في مقدمته لكتاب «البيهقي وموقفه من الإلهيات».

5- موقف تلامذة إمام الحرمين عند موته

والمقطع الخامس الذي اعترض عليه السبكي من ترجمة إمام الحرمين في سير أعلام الذهبي: هو ما علَّق به على موقف تلاميذه عند موته، وقد كانوا نحو أربعمائة طالب علم.

فقد ذكروا أنهم كسروا منبره «الذي كان يخطب عليه»، كما كسروا محابرهم وأقلامهم! وأقاموا حولًا، ووضعت المناديل عن الرؤوس عامًا، بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه، وكانت الطلبة يطوفون في البلد نائحين عليه، مبالغين في الصياح والجزع!

قال الذهبي: «قلت: هذا كان من زي الأعاجم، لا من فعل العلماء المتبعين»[34].

أغضب هذا التعليق التاج السبكي، وقال: «قد حار هذا الرجل: ما الذي يُؤذي هذا الإمام؟! وهذا لم يفعله الإمام، ولا أوصى به أن يعمل، حتى يكون غضًّا منه، وإنما حكاه الحاكون إظهارًا لعظمة الإمام عند أهل عصره، وأنه حصل لأهل العلم على كثرتهم - فقد كانوا نحو أربعمائة تلميذ - ما لم يتمالكوا معه الصبر، بل أداهم إلى هذا الفعل. ولا يخفى أنه لو لم تكن المصيبة عندهم بالغة أقصى الغايات لما وقعوا في ذلك».

قال: «وفي هذا أوضح دلالة لمن وفَّقه الله على حال هذا الإمام رضي الله عنه، وكيف كان شأنه فيما بين أهل العلم في ذلك العصر المشحون بالعلماء

---

(34) «سير الأعلام» (476/18).

والزهاد»[35]. اهـ.

ترى هل أخطأ الإمام الذهبي في تعقيبه على فعل هؤلاء الطلبة، وتجاوز حده؟ أو قال ما ينبغي أن يقوله العالم الناصح لله ورسوله وللمسلمين؟

الذي أراه أن الذهبي لم يحد عن الصواب فيما علَّق به، بل لو لم يفعل لكان ملومًا في نظري، فإن القارئ العادي الذي يقرأ مثل هذه الأعمال من مثل تحطيم المنابر، وكسر الأقلام والمحابر، وغير ذلك من الصياح والنواح وإظهار الجزع، ومنع تغطية الرؤوس، ونحوها، ربما يظن أنها مشروعة؛ لأنها صادرة من طلاب العلم الشرعي، ومن تلاميذ أكبر إمام في وقته، وغالبهم من نوابغ عصرهم، فكانت كلمة الذهبي في موضعها حقًّا، ولا سيما أن هذا لم يكن عند وقوع المصيبة فقط، ونقول: إنها أثر الصدمة، بل استمر على ذلك هؤلاء، ومضوا معلنين الحداد، وكشف الرؤوس عامًا كاملًا.

والذهبي لم يلم إمام الحرمين، بل لام هؤلاء التلاميذ، وكان إنكاره هادئًا متزنًا. إذ قال: «هذا من زي الأعاجم، لا من فعل العلماء المتبعين».

والغريب أن السبكي نقل الكلام بالمعنى، فقال: «وهذا من فعل الجاهلية»، والذهبي لم يقل ذلك، مع أنه من فعل الجاهلية حقًّا، بل قال: «هذا كان من زي الأعاجم»!.

كنت أود للعلامة السبكي أن يكون أكثر عدلًا وإنصافًا لشيخه الإمام الذهبي، وألا يدخل المعركة الخلافية مع الحنابلة في موقفه هذا، ولكن هذا هو شأن البشر. فغفر الله للسبكي وللذهبي ولإمام الحرمين، ولنا معهم أجمعين.

---

(35) «الطبقات» (184/5).

* * *

خاتمة

بعد هذه الجولة التي جلناها مع الإمامين المؤرخين: الذهبي والسبكي - رحمهما الله تعالى - في ترجمتهما لإمام الحرمين، ومحاولتنا أن نحكم بينهما بالعدل، وقد تبين لنا أن كليهما قد أعطى للرجل حقّه، وإن اختلفت زاوية النظر لدى كلٍّ منهما، فالذهبي ركز على نهاياته، والسبكي ركز على أواسطه وبداياته، وإنما الأعمال بالخواتيم.

ويسرني أن أختم هذا البحث باقتباس صفحات من تصديري لكتاب إمام الحرمين الشهير في الفقه، والذي أنفق فيه السنوات الأخيرة من عمره، وهو «نهاية المطلب في دراية المذهب»، وقد قام على تحقيقه وخدمته أخي الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب، الذي حقق عدة كتب لإمام الحرمين، انتفع الناس بها في مشرق ومغرب.

وحسبي أن أضع هنا هذه الفقرات من هذا التصدير كما هي:

عبقرية متميزة:

كان إمام الحرمين عبقري زمانه - وما بعد زمانه - في العلوم التي تجمع بين العقل والنقل، وهي: علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف.

وربما يظن كثير من الناس أن علم الفقه علم نقلي بحت، وهو كذلك عند الكثيرين، ولكنه - عند إمام الحرمين ومن جرى مجراه - له ارتباط وثيق بالعقل، في التأصيل والتدليل، والتقرير والتعليل، وربط المسائل بجذورها، ورد الفروع إلى أصولها، وقياس الأشباه بأشباهها، ومراعاة الجوامع

والفوارق، ورعاية العلل والمقاصد.

الاسقلال في التفكير والاستقلال في التعبير:

تميز إمام الحرمين بالاستقلال في التفكير، والاستقلال في التعبير:

فهو في أصول الدين أشعري، ولكنه قد يخالف الأشعري، برغم تعظيمه لقدره، وتقديره لفضله.

وهو في فروع الفقه شافعي، ولكنه قد يستقل عن الشافعي بمسائل، وينفرد بنظرات، وأفكار واجتهادات فقهية لم يسبق بها أحد.

وهو واضع اللمسات الأولى في مقاصد الشريعة، حيث أشار إليها في «البرهان» وتحدث عن المصالح الضرورية والحاجية والتكميلية.

ثم جاء تلميذه الغزالي وصاغها صياغةً جديدةً متكاملةً، ووضع أسس البناء لهذه النظرية التي توسع فيها الشاطبي فيما بعد.

وعبارات إمام الحرمين في أكثر من كتابٍ له، بل في كل ما عرف من كتبه: تدل على أنه شخصية مستقلة الفكر، وإن انتسب إلى الأشعري اعتقادًا، وإلى الشافعي فقهًا، بل مع تعصبه للشافعي إلى الحد الذي جار على بعض المذاهب الأخرى، وبعض الأئمة مثل أبي حنيفة كما تجلى ذلك في كتابه: «مغيث الخلق في اختيار الأحق»، وفي حديثه - في بعض الأحيان - عن الإمام مالك، واسترساله في المصلحة المرسلة.

استمع إليه وهو يقول في «الغياثي»: «ومعظم المتلقبين بالتصنيف في هذا الزمان السخيف يكتفون بتبويب أبواب، وترتيب كتاب، متضمنة كلام من

مضى، وعلوم من تصرم وانقضى»[36].

وفي موضع آخر يقول: «ولو ذهبت أذكر المقالات وأستقصيها وأنسبها إلى قائليها ... لخفت خصلتين: إحداهما: خصلة أحاذرها في مصنفاتي وأتقيها، وتعافها نفسي الأبية وتجتويها، وهي سرد فصل منقول عن كلام للمتقدمين مقول. وهذا عندي بمنزلة الاختزال والانتحال، والتشيع لعلوم الأوائل، والإغارة على مصنفات الأفاضل!»[37].

فهو إذن يبحث عن الجديد، ويعاف تكرار القديم.

ثم يقول: «وحق على كل مَن تتقاضاه قريحته تأليفًا، وجمعًا وترصيفًا: أن يجعل مضمون كتابه: أمرًا لا يُلفَى في مجموع، وغرضًا لا يُصادف في تصنيف»[38].

وفي مكانٍ آخر من الكتاب نفسه يقول: «لستُ أحاذر إثبات حكم لم يُدونه الفقهاء، ولم يتعرض له العلماء، فإن معظم مضمون هذا الكتاب لا يُلفى مدونًا في كتاب، ولا مضمنًا لباب. ومتى انتهى مساق الكلام إلى أحكام نظمها أقوام، أحلتها أربابها، وعزيتها إلى كتابها. ولكني لا أبتدع، ولا أخترع شيئًا، بل ألاحظ وضع الشرع، وأستثير معنى يناسب ما أراه وأتحراه. وهكذا سبيل التصرف في الوقائع المستجدة التي لا توجد فيها أجوبة العلماء معدة»[39].

وهذا شائع في كتبه كلها، وهو يعتد بذلك ويباهي به إلى حد قد تصفه

---

(36) «الغياثي» بتحقيق د. الديب، فقرة (45).

(37) المصدر السابق: فقرة (242).

(38) «الغياثي» نفس الفقرة.

(39) «الغياثي» فقرة (378).

بالعجب أو الغرور، ولكنها - كما قال أخي عبد العظيم - الثقة الكاملة بالنفس. يقول في «البرهان» معقبًا على ما عرض فيه لأنواع الجموع: «ونحن من هذا المنتهى نفرع ذروة في التحقيق لم يبلغ حضيضها، ونفترع معنى بكرًا، هو - على التحقيق - منشأ اختباط الناس في عماياتهم»[40].

ولقد أقر الفقهاء والأصوليون والمتكلمون من بعده بأصالته وتقدمه واستقلاله في العلم والفكر، فهو نسيج وحده فيما يصنف ويكتب، غير مقلدٍ لأحدٍ قبله.

يقول التاج السبكي في «طبقاته» عن كتابه «البرهان»: «اعلم أن هذا الكتاب وضعه الإمام في أصول الفقه على أسلوب غريب، لم يقتد فيه بأحد، وأنا أسميه «لغز الأمة» لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلي مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلا عن اختيار، يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها، وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية»[41].

فانظر إلى هذه العبارات: «لم يقتد فيه بأحد»، وقوله: «عن اختيار يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها»، مما يدل على أن الرجل من المبدعين، وأصحاب العقول المبتكرة.

وفي موضع آخر يعلق السبكي على ما وصفة بتحامل الإمام المازري وغيره من علماء المالكية الذين شرحوا «البرهان»، مبينًا سبب هذا التحامل في رأيه، فقال: «إنهم يستصعبون مخالفة الإمام أبي الحسن الأشعري،

---

(40) انظر: «البرهان» فقرة (234) (ج328/1).
(41) «الطبقات الكبرى» (192/5).

ويرونها هجنة عظيمة، والإمام - إمام الحرمين - لا يتقيد لا بالأشعري ولا بالشافعي، لا سيما في «البرهان»، وإنما يتكلم حسب تأدية نظره واجتهاده، وربما خالف الأشعري، وأتى بعبارة عالية على عادة فصاحته، فلا تتحمل المغاربة أن يقال مثلها في حق الأشعري».

قال السبكي: «وقد حكينا كثيرًا من ذلك في شرحنا على «مختصر ابن الحاجب»»[42].

وقد استدل الحافظ السيوطي (ت911هـ) في رسالته «الرد على مَن أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» بعبارة السبكي هذه: أن إمام الحرمين لا يتقيد بالأشعري ولا بالشافعي، وإنما يتكلم حسب ما يؤديه إليه نظره واجتهاده: أن هذا الإمام قد استقل بالاجتهاد، وتحرر من التقليد[43].

ونقل عن ابن المنير أنه قال في حق إمام الحرمين: «له علو همة إلى مساواة المجتهدين».

ووصفه الحافظ القزويني بأنه: «المجتهد ابن المجتهد»[44].

ومما يؤكد ذلك: ما ذكره الدكتور الديب في تحقيقه «للبرهان» من جملة فهارس لها دلالتها وأهميتها في آخر الكتاب، ومنها ثلاثة فهارس ننبه عليها هنا:

1- فهرس المسائل التي خالف فيها إمام الحرمين الشافعي، وقد أحصاها،

---

(42) «الطبقات» (192/5).

(43) «الرد على مَن أخلد إلى الأرض» (ص194) تحقيق د. فؤاد عبد المنعم.

(44) نفسه.

فكانت أربعًا وعشرين مسألة.

2- فهرس المسائل التي خالف فيها إمام الحرمين الأشعري، وقد حصرها في ثلاث مسائل.

3- فهرس المسائل التي خالف فيها إمام الحرمين القاضي أبا بكر الباقلاني، وهو الرجل الثاني بعد الأشعري، وقد أحصاها، فكانت إحدى وأربعين (41) مسألة[45].

وهو يتحدث عن الإمام الأشعري بكل احترام وتقدير، ولكن لا يمنعه هذا أن يقول في بعض المسائل: «ورأي الأشعري مختبط في هذه المسألة! وكيف لا وقد علق على قوله لوالده الإمام المعروف فقال: وهذه زلة من الشيخ رحمه الله»[46].

وأما استقلاله في «التعبير» فهو ظاهرة ملحوظة في كل ما يكتب، فمعجمه اللغوي رحب، ومفرداته كثيرة، وهو ينتقي منها ويتأنق فيها، إلى حد الإغراب في بعض الأحيان، ولا يكاد يستخدم عبارات من قبله، وكثيرًا ما يلتزم السجع، كما هو نمط عصره، وأغلبه مستساغ، وقليل منه متكلف، وقد رأيناه يلتزم السجع في بعض كتبه، مثل: «غياث الأمم»، فهو مسجوع من أوله إلى آخره، إلا ما ندر.

وأحيانًا أخرى يتحرر من السجع، ويمضي مسترسلًا، ككبار البلغاء. قال

---

(45) انظر: هذه الفهارس في أواخر الجزء الثاني من «البرهان» (ص 1443 - 1449).
(46) انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (360/3).

ابن خلكان: «ورزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره»[47].

عقل كبير وقلب كبير:

وكما تميز الإمام الجويني بعقله الكبير، تميز بقلبه الكبير، فقد اتفق مؤرخوه أن الرجل كان من «أصحاب القلوب» الذين لهم مع الله تعالى حال ومقام، وكان إذا ذكر الناس في مجلسه بكى وأبكى الحاضرين.

وهذا مع أن الذين يشتغلون بالقضايا العقلية، والمجادلات الكلامية، يصابون بجفاف الروح، وقسوة القلوب، إلا مَن رحم ربك من القلائل الذين احتفظوا بقلوبهم حية لم تمت، سليمة لم تسقم، صافية لم تشب، ومنهم إمام الحرمين، قد قال هو رحمه الله بحق: «من ضرى بالكلام صدى جنانه!».

قال مؤرخه عبد الغافر الفارسي: «كان من رقة القلب بحيث يبكي إذا سمع بيتًا، أو تفكر في نفسه ساعةً. وإذا شرع في حكاية الأحوال، وخاض في علوم الصوفية في فصول مجالسه بالغدوات: أبكى الحاضرين ببكائه، وقطر الدماء من الجفون بزعقاته ونعراته وإشاراته؛ لاحتراقه في نفسه، وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار»[48]. اهـ.

وقد تجلى ذلك في خلقه وسلوكه مع من حوله، ومن ذلك خلق التواضع، فقد ذكروا أنه كان من التواضع لكل أحدٍ بمحل يتخيل منه الاستهزاء لمبالغته فيه.

ومن حميد سيرته: أنه ما كان يستصغر أحدًا حتى يسمع كلامه، شاديًا كان

---

(47) «وفيات الأعيان» (168/3).

(48) «الطبقات الكبرى» (180/5).

أو متناهيًا.. صغيرًا كان أو كبيرًا، ولا يستنكف أن يعزي الفائدة المستفادة إلى قائلها، ويقول: «إن هذه الفائدة مما استفدته من فلان».

وإذا لم يرضَ كلام أحدٍ زيَّفه، ولو كان أباه أو أحد الأئمة المشهورين(49).

فهذا كله ينطق بأن هذا الإمام قد رُزق من نقاء القلب ما رُزق من ذكاء العقل، والله يختص بفضله مَن يشاء.

كلمة عتاب لإمام الحرمين:

هذا هو إمام الحرمين: قمة في فكره وفقهه، قمة في إنتاجه وعطائه، قمة في مكارمه وفضله، قمة في غيرته على دينه ودفاعه عنه، ومع هذا فالكمال لله تعالى وحده، والعصمة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وكم كنت أتمنى لهذا الإمام الكبير ألا يبالغ في مدح نظام الملك، كما هو ظاهر في أكثر من موضع في كتابه «الغياثي» وفي مقدمته خاصة، حين قال في قصيدة له يمدحه بها:

وما أنا إلا دوحة قد غرستها وسقيتها حتى تمادى بها المدى

فلما اقشعر العود منها وصوحت أتتك بأغصان لها تطلب الندى

وقد قال التاج السبكي: «إنه وجد بخطه رضي الله عنه في خطبته للغياثي - وهو عنده بخطه - أنه قد ضرب على البيتين الأخيرين»، قال السبكي: «وسررت بذلك، فإني سمعت شيخ الإسلام - يعني: والده التقي السبكي - رحمه الله يحكي عن شيخنا أبي حيان: أنه كان يتعاظمهما، ويقول: كيف يرضى الإمام أن يخاطب النظام بهذا الخطاب، ثم يذم الدنيا التي تحوج مثل

(49) المرجع السابق، وانظر: «شذرات الذهب» (360/3).

الإمام إلى مثل ذلك؟!»[50].

وما يدرينا لعل نيته في ذلك خير ينشده للدين أو للمسلمين، وإنما لكل امرئ ما نوى، أو لعلها لحظة ضعف مما يعتري البشر، استدركها الإمام على نفسه، وإنما استعظمت منه لأنه عظيم حقًّا.

كما كنت أود ألا يغلو في نقده للمذهب الحنفي إلى حد العنف الجارح الذي لا يليق من أهل العلم بعضهم لبعض، كما بدا ذلك في كتابه «مغيث الخلق في اختيار الأحق»، وقد أنكر بعضهم نسبة الكتاب إليه، ولعل أخي عبد العظيم منهم، وكم أتمنى أن يصح ذلك، ولكن وجدت في أواخر «البرهان»[51] ما يؤيد بعض ما في الكتاب. كما أن المؤرخين من بعده نسبوا الكتاب إليه.

وكذلك لم أكن أحب له أن يشتد في نقد إمام دار الهجرة مالك بن أنس لأمور لم تثبت عنه، كالقول بقتل الثلث لإبقاء الثلثين، ونحو ذلك - وإن كان في بعض الأحيان قيَّدها بقوله: إذا صحَّ ذلك عنه، وهذا هو الواجب.

وأيضًا لم أكن أود من رجل كبير مثله أن يتحدث عن معاصره قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي (ت450) بمثل تلك اللهجة الساخرة المهينة[52]، التي نفى بعض الناس أن يكون الماوردي هو المقصود بها، حتى قال المحقق الكبير الشيخ السيد أحمد صقر رحمه الله في حديث مع الدكتور الديب: «أجُنَّ إمام الحرمين حتى يقصد بذلك الإمام الماوردي؟!» ولكن الدلائل كلها تقطع

---

(50) «الطبقات» (209/5).

(51) «البرهان» فقرة (1553) (ص1364، 1365) من الجزء الثاني.

(52) انظر: الفقرة (432) من «البرهان» (301/1، 303)، وانظر ما قاله عنه في «الغياثي» فقرات: (209، 232، 233، 432).

بأنه الماوردي، وهو ما أكده الدكتور الديب.

ويبدو أن هذا الإمام الفذ - مع عقله الكبير - كان حار العاطفة، حاد المزاج، فلا يبعد أن تغلبه - مثل كثير من العظماء - حدة الطبع، فتدفعه إلى المبالغة في المدح إذا مدح، وإلى الإسراف في النقد إذا نقد، وهذا يؤكد أن الإنسان هو الإنسان، وإن بلغ في العلم والفضل ما بلغ. وقد قال الشاعر قديمًا:

مَن ذا الذي ما ساء قط ومَن له الحسنى فقط؟!

ومهما يكن الأمر، فحسنات الرجل أكثر، وفضائله أغزر، ومكارمه أكبر، والله أعلم بالسرائر، وفي الحديث الذي استدل به الشافعية: «**إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث**»[53]، وفي رواية: «**لم ينجسه شيء**»[54]، فكيف إذا كان بحرًا زاخرًا؟ غفر الله لإمام الحرمين وجزاه خيرًا عما قدَّم لدينه وأمته.

{**سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ 180 وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ 181 وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**} [الصافات: 180 - 182].

* * *

(53) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم عن ابن عمر. وذكره في «صحيح الجامع الصحيح» (416).

(54) رواه ابن ماجه عن ابن عمر. المصدر السابق (417).